إعلام الله سبحانه دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم

تكفل الله سبحانه حفظ النبي ﷺ والدفاع عنه وعن عرضه وحمايته من أذى الناس وشرورهم ومكائدهم وسباتهم، المادية منها والمعنوية حتى نبه النبي ﷺ أصحابه عن هذه الخاصية العجيبة، وهي دفاع الله عن النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما، وأنا محمد)[1].

وقد تولى الله تعالى الدفاع عن نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وأعلن ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن أصرحها قوله سبحانه تعالى:

- قوله سبحانه تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36] أي أنه سبحانه وتعالى هو وحده الكافي في الدفاع عن عبده صلى الله عليه وسلم السوء والفرية والتشويه، وأنه ينصره ويكفيه أمر من يعاديه من أن ينالوه بشيء، وهذه الكفاية والنصرة ليست مختصة بحياته صلى الله عليه وسلم فحسب، وإنما هي مستمرة حتى يرث الله عز وجل الأرض وما عليها، كما قال تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} [البقرة:137] وكقوله سبحانه تعالى: {إنا كفيناك المستهزئين} [الحجر:95] الذين كانوا يستهزؤون به ﷺ أو بسنته أو بأهله فالله يكفيه أمرهم، وقد قال الله تعالى- في الحديث الإلهي-: "من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة"[2] وفي رواية: " إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب "[3] والنبي عليه الصلاة والسلام هو إمام الأولياء ونبي الأولياء وحبيبهم وقدوتهم، ولا ريب أن معادته أشد وأعظم.

- قوله سبحانه تعالى {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: 67] أعلن الله تعالى في هذه الآية كفالته بنصرته ﷺ – سواء في حياته أو بعد وفاته- ونادى بعصمته له من الناس حتى يظهر دينه على جميع الأديان كلها، وكان وعد الله مفعولا.

- قوله سبحانه تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: 3] بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة جزاء من طعن في رسوله الكريم ﷺ ونال منه أو أبغضه أو أبغض شيء مما يتصل به.

يقول شيخ الإسلام في تفسير الآية:" فكل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره" [4]

وهذا الوعيد من الله تعالى لا بد من وقوعه لكل من استهزأ بالنبي ﷺ، ويؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: 38] والنبي ﷺ إمام المؤمنين، لذا نجد كل فرية قريش على رسول الله ﷺ – تارة بالسحر وتارة بالجنون وهلم جر – جعلها الله هباء منثورا ولا معنى لها في الواقع، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك كلها إذ يقول:" ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد" [5]

وجاء متواترا في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وفي القصص المتعددة من أخبار الأمم الغابرة مع أنبيائهم ورسلهم؛ أنه ضربت عليهم الذلة، والمسكنة، وباءوا بغضب من الله تعالى بسبب إيذائهم للأنبياء، ولم يكن لهم نصيرا حين وقوع العذاب والعقاب فأصبحوا أهل الخزي، وكان بذلك سنة وعادة ووعدا بالتنكيل بكل من أذى نبيا من أنبياء الله تعالى إلى يوم الدين، والله يقول: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} [الإسراء: 8]

يقول شيخ الإسلام: ولعلك لا تجد أحدا آذى نبيا من الأنبياء ثم لم يتب إلا ولابد أن تصيبه قارعة"[6].

وقال في موضع آخر: وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ وأكرم رسوله فثبت ملكه، فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ برسول الله ﷺ فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك"[7].

وهذه القصة جديرة بالتأمل وحقيقة الاعتبار وكيف سنة الله تعالى في هؤلاء القوم عبر التاريخ، وذكر السهيلي – كما نقل الحافظ عنه في الفتح – " أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب – يعني كتاب رسول الله الكريم عليه الصلاة والسلام – في قصبة من ذهب تعظيما له، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة ثم كان عند سبطه، فحدثني بعض أصحابنا أن عبد الملك بن سعد أحد قواد المسلمين اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب فلما رآه استعبر وسأل أن يمكنه من تقبيله فامتنع...

وعن.. سيف الدين فليح المنصوري قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، فقال لي: لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج لي صندوقا مصفحا بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا[8]

وعن جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبي: أن بعض أمراء المغل تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغل، فجعل واحد منهم ينتقص النبي ﷺ، وهناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر من ذلك، وثب عليه الكلب، فخمشه فخلصوه منه. وقال بعض من حضر: هذا بكلامك فى محمد ﷺ.

فقال: كلا بل هذا الكلب عزيز النفس، رآني أشير بيدى فظن أني أريد أن أضربه!

ثم عاد إلى ما كان فيه فأطال، فوثب الكلب مرة أخرى فقبض على زردمته فقلعها، فمات من حينه، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين الفا من المغل.[9]

فكم كان لمثل هذا الحدث من أثر في امتداد الإسلام في المشارق والمغارب حتى بلغ مبلغ الليل والنهار.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه " الصارم المسلول على شاتم الرسول" ما جربه المسلمون في وقائع متعددة من تعجيل الانتقام من الكفار إذا تعرضوا لسب رسول الله ﷺ.

وبهذا يتجلى مدى نصرة الله تعالى لنبيه ﷺ في حياته وبعد وفاته. {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ} [التوبة: 40] وكفى بعبده ﷺ دافعا ونصيرا.

[1] صحيح البخاري (3340) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] رواه الطبراني في الأوسط (609) من حديث الأفراد

[3] رواه البخاري (6502)

[4] الصارم المسلول على شاتم الرسول ص: 164

[5] رواه البخاري (3533)

[6] الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص:173

[7] المصدر السايق، ص: 172

[8] فتح الباري 1/44

[9] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر 4/ 152